الحوار الحضاري والثقافي
واجب ديني ومصلحة إنسانية

د. مصطفى إبراهيم تسيريتش
رئيس العلماء والمفتي العام في دولة البوسنة
والهرسك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي أُرسل رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستخلفه في الأرض وجعلها له دار ابتلاء وامتحان، ومنّ على بني آدم بأن أرسل الرسل تبلغهم هُدَى الله، فمن تبع ذلك الهدى فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن أبى فمصيره إلى النار.

وكان كل رسول يأتي قومه بالهدى من عند الله، مصدقاً بما جاء به الرسل من قبله، إلى أن ختم الله النبوة بمحمد ﷺ، فأرسله إلى الثقلين الإنس والجن، وأنزل معه القرآن الكريم:

﴿ألم اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ بالْحَقِّ مُصَدِّقًا لمَا بَيْنَ يَدَيْه وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾ (آل عمران: ١ - ٤).

ذكر الله سبحانه في هذا القرآن حتمية وجود التنوع بين بني البشر فقال سبحانه وتعالى مخاطباً الناس في كل زمان ومكان :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

ومن أشكال هذا التنوع، تعدد الأديان، والقرآن الكريم يعلّم المسلمين

كيفية التصرف مع التّعدّديّة الدّينيّة من جهة، وكيف يُقَدِّرون حقيقة أن هذا العالم غير مكوّن من دين واحد أو أمة واحدة فقط، فأوجب عليهم دعوة الناس إلى دين الله وحدد لهم أسلوب الدعوة واستأثر سبحانه وتعالى بالأمر والحكم على مصائر الناس في الآخرة فقال عز وجل:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

إنه من المؤسف جداً، أن نجد بين أتباع الأديان أقلّيّة عالية الصوت جدًّا ترى في تشابه اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام سبباً وجيهاً جداً لإثارة النِّزاعات بدلاً من السّلام، وغالباً ما يقودنا هذا الموقف إلى استنتاج خاطئ مَفاده أنّ التّشابه يثير النّزاع، بينما يجلب الاختلافُ الاحترامَ المتبادل.

لقد بلغ العطاء الحضاري العظيم الذي قدمه المسلمون للبشرية ذروته في الوقت الذي تفاعلت فيه الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى. إن فكرة العزلة غريبة على الحضارة الإسلاميّة، لأنّ النبيّ محمداً ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس كافّة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨).

ولذلك فهو الشّاهد على العالم كله من حيث إنه جلب إليه الرّحمة بَدَلَ الشقاء:

﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

لقد عرف المسلمون في الماضي كيف يتفاعلون مع غيرهم، كما عرفوا كيف يقدّرون التجارب المختلفة داخل صفوفهم، واضعين نصب أعينهم الطريق الواحد نحو مجد الحضارة الإسلاميّة باعتبارها إنجازا مشتركا للأمة كلها.

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

إنني أعتقد أن أحد أسباب تقدم العالم الإسلامي على باقي أجزاء العالم يكمن في حقيقة أن الإسلام قد حرّر البشريّة من عقدة الذنب، ورسّخ مبدأ تساوي الفرص للجميع ليُظهروا جدارتهم التّاريخيّة.

إن أجيالاً متلاحقة من المسلمين فقدت الجرأة الرّوحيّة والإبداع الفكريّ، واستبدَّ بها نوع من الخجل الرّوحيّ الذي يقود الحضارة الإسلاميّة نحو العزلة، بينما نرى اقتباسا فكريّا يسيطر على المسلمين يوشك أن يفضي بالحضارة الإسلاميّة إلى الذوبان والانصهار.

إن الحضارة الإسلاميّة لم تُصْنَع للعزلة أو للانصهار والذوبان، بل إنها صُنعَت للتّفاعل والتّعاون. لذلك ينبغي على الجيل المعاصر أن يتحرر من أخطاء الماضي، وبذلك يتحمل المسؤوليّة في مستقبل العالم، وليس بالسير في طريق الانعزال أو الانصهار والذوبان، وإنما بالسير في طريق التّفاعل الثّقافيّ المتكافئ والتعاون الحضاري المتبادل.

لقد جرّبت الحضارة الإسلامية التّفاعل في صدر الإسلام، ومن ثم في زمن التأثير الإسلاميّ العظيم في التغيير الفكريّ والرّوحيّ في الغرب. وقد

آن الأوان لتدخل في التفاعل التّاريخيّ الثّالث مع باقي العالم، ولا سيما مع العالم الغربيّ. ولكن الوضع اليوم يختلف عنه في الماضي، لأنّ الغرب اليوم لا يشعر بالحاجة لتعلّم أي شيء من الشّرق، كما اعتاد أن يكون حاله في السابق.

بل على العكس من ذلك، إن الغرب يعتقد بوجوب أن يقلِّدَهُ الشّرق في كل الأمور، حتّى في السلوك الأخلاقيّ الغريب والمخالف للحشمة والقيم الأخلاقية الإنسانيّة. ولكن لا ينبغي لمثل هذا الوضع أن يثني عزيمة المسلمين عن التّفاعل مع الغرب، بسبب ما يوجد من حاجة متبادلة ودائمة بين العالَمَين ـ الشّرق والغرب ـ تلك الحاجة المتبادلة التي لم تبدأ بالأمس، ولن تنتهي في الغد.

لكن، وقبل كل شيء، يجب على المسلمين أن يدركوا هويتهم العالمية، وتوجّههم الزماني والمكاني نحو الكعبة ـ قبلة المسلمين ـ وأن يسود التضامن القائم على الإيمان بين عامة المسلمين في مختلف أرجاء العالم.

إنني أعتقد أنّه ليس أمام المسلمين اليوم خيار دون الإدراك بأن مستقبلهم يستند إلى قدرتهم على تحقيق التآلف بين ذاكرتهم الماضية والتّاريخ المستقبليّ، مما ينجم عنه تعاون داخليّ لجميع جوانب النِّعَم الرّوحيّة الغنيّة والثمار الفكريّة، وكذلك تفاعل خارجيّ لكافة إمكانيّات تَقدُّمِ الحياة البشريّة التي تقدم المعرفة البشريّة الإيجابية للفرد وللمجتمع.

إلى جانب ذلك، يجب على المسلمين اليوم أن يصلوا إلى نقطة احترام أنفسهم، كي يحظوا باحترام الآخرين لهم، ويجب عليهم أن يعرفوا أن العالم

اليوم يقوم على أساس الثّقة المتبادلة التي يحتاج بناؤها وقتا أكثر بكثير من الوقت اللازم لهدمها.

كما يجب على المسلمين مواصلة الانفتاح على الآخرين والتحاور معهم، وذلك تنفيذا للأمر الإلهي ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥). وهذا يساعدهم في التعريف بدينهم وحضارتهم، وتلك هي الوسيلة الناجعة للتفاهم مع الآخرين والتعاون معهم على مواجهة الأخطار والأمراض والآفات التي تداهم المجتمع الإنساني. كما أن الحوار يعين على دحض الافتراءات عن الإسلام، وتهميش القوى التي تحرض ضده، وتصفه بأنه عدو للحضارات لتستعدي الناس عليه وعلى أتباعه.

إن زيارة خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ للفاتيكان ورعايته لهذا المؤتمر تأتيان انسجاماً مع دعوته التي وجهها إلى أمم العالم مطالباً إياها بالحوار، تلك الدعوة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحرصه على أن يحل التفاهم والتعايش والتواصل والتعاون بين بني البشر مكان التنابز والتنافر والصراع، كما أن الدعوة إلى الحوار الذي يحقق التعارف بين الشعوب، يؤيدها ما ورد في كتاب الله العظيم وسنة رسوله محمد ﷺ من توجيه كريم للناس بالتعاون على إقامة المجتمع الإنساني على قواعد من التعارف والتواصل وإعمار الأرض:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ الله أَتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣) ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

إن الجهود التي بذلتها رابطة العالم الإسلامي خلال ندوات الحوار التي عقدتها مع القيادات الثقافية والدينية والسياسية والعلمية في عدد من البلدان الغربية، لَتؤكدُ على وجود منافع عديدة للحوار، في مقدمتها عرض مبادئ الإسلام على الآخرين، وإزالة الشبهات عنه، وتصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام. وإن مؤتمرنا هذا يأتي مؤكدا لاستمرار الرابطة باهتمامها بالحوار وإنجاحه وتحقيق مقاصده النبيلة. فبارك الله في جهودها.

وفي الختام أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ المملكة العربية السعودية وخادم الحرمين الشريفين ذخرا للإسلام والمسلمين وعونا للبشرية على الخير، وأسأله سبحانه وتعالى أن يوفق المشاركين في المؤتمر للتوصل إلى نتائج تحقق الآمال المنشودة وتعين على تحقيق الهدف الإسلامي من الحوار مع أتباع الأديان والثقافات والحضارات المختلفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.